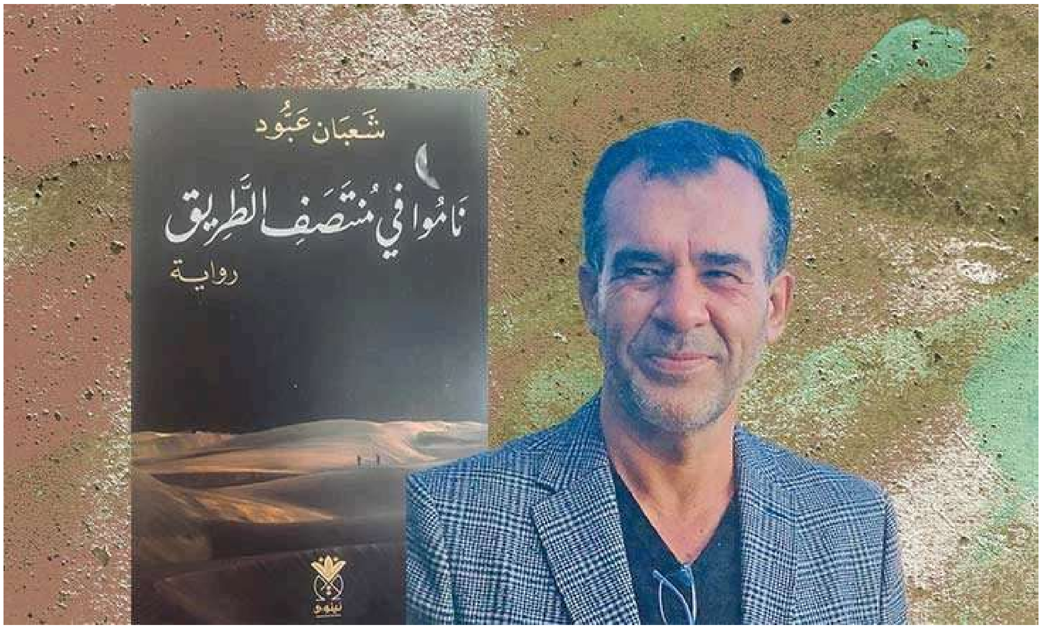
إذاعة الاحتلال: الجيش حاول اغتيال رئيس الأركان ووزير دفاع الحوثيين الخميس وبانتظار نتائج الغارة

مسار الحلم بين المغادرة والعودة في «ناموا في منتصف الطريق»

10 - أغسطس - 2025



يُتم السرد مأساويته حين يتواطأ مع جمالية الإفضاء والكتابة، فتكون الجُمل مَرْكبات لغوية، تتسارع لإكمال الحكاية التي تعجز اللغة والألسنة قبلها عن كشف حقائقها، أو شعورها الجواني في عمق الروائي الذي لا ينفصل عن الحدث، بل يُعتبر جزءاً أصيلا من نسيجه. رواية المأساة هي تلك الكتابة التي تتفجر من الحلم والدم. الحلم الذي يتم تشخيصه كما حالة الجسد حين يجتاحه المرض، التشخيص يكون راحة للمريض، لأنه عرف سبب آلامه، ولكنه في الوقت ذاته يُعتبر هاجسا مؤرقا، لأن المرض كيفما كان يتأسس في وعي المريض عامل خطرٍ يحوم بالذات على مشارف الهلاك. تلك بالضبط هي الرواية السورية المطلة من شرفة المأساة الوطنية، «الثورة» «الحرية»، «الأحلام المجهضة». خرجت الحناجر هاتفة بـ»الحرية» تماما كما انبرت الأقلام كاتبة أحلام الحرية، وفي السياق كانت الرواية هي الجسر الذي يبني مستقبل الوطن على مشارف الجمال الذي احتكرته الشهوة للسلطة خمسين عاما، فكانت

الكتابة بمثابة العلاج، وكان الحب أول العلاج، وكان شعبان عبود يتهيأ طول مرحلة الثورة والغربة بعدها لقول شيء ربما يكون سردية غالبة تؤثث سوريا الحب بعيدا عن سوريا الحرب.

مسار الحب من المغادرة إلى العودة:

وأنا أقرأ رواية «ناموا في منتصف الطريق» للروائي السوري شعبان عبود، الصادرة عام 2025، متأملا العنوان، انتابني شعور استعجال القراءة، كي أجد تأويلا منطقيا لهذه الجملة الإخبارية، التي تبدو معلقة في فراغٍ يملؤه الصدى وصورة ذوات أنهكها التعب، واستبطأت الوصول فاستسلمت للجسر السريع الذي يقود إلى الحلم. ذوات نامت كي تصل سريعا إلى الأفق الجميل ولو كان حلما. «لم ينالوا شيئا مما حلموا به، ولا تراجعوا يوما عن الحلم… فقط ناموا في منتصف الطريق». الطريق هو الفضاء الذي سهل في صعوبةٍ مغادرة الوطن، بكل الأحلام التي لم تتحقق، كل سوري أجبره الطغيان على المغادرة، حَمَلَ معه أحلامه، ومن نام في منتصف الطريق، لم يحقق حلمه لكن نام لكي يستمر في الحلم، ثم يكمل طريق الغربة مؤسسا هاجسا يدفعه دوما إلى تكريس طريق العودة، وكان مسار الحب عند شعبان عبود هو الحلم، الذي به تمت المغادرة وبه تحققت العودة، منذ «ملكة الفوعة تلميذ بنش»، حيث الحب أنتج طريقا للقاء بين «سلمى» والتلميذ الذي كانه الراوي، لقاء في الغربة بين ذاتين تحررتا من سطوة الطائفة، فغذت في الحلم «الفوعة» هي ذاتها «بنش»، ولهذا شعرتُ وكأنني كنت في جلسة مقهى مع الكاتب، نتبادل الحكايا حول سوريا الثورة وسوريا الأمل وافترقنا على أمل أن تكون هناك سوريا «الناس» التي تمحق سوريا «الطائفة»، وكانت رواية «ناموا في منتصف الطريق» البشارة التي أكملت حلم الشخوص الورقية، في أن تشهد مع الكاتب المتعدد سوريا، تلك التي ليست فقط دمشق ولكنها كل المناطق التي بها الناس الذين أشعلوا فتيل الثورة والحب والأمل والحقيقة، حقيقة حركة شخصية سليم التي افتُتحت بها الرواية مودعا لـ»آفس» في ريف أدلب: «لكن هذا الصباح مختلف. إنه على

موعد مع دمشق»، ثم تقفل الرواية بعودته إلى بلدته عن طريق المرور عبر قبر الأم: «عاد أهل القرية إلى آفس بعد نهاية الحرب، وعاد هو بشعر أبيض… جلس بقرب القبر»، هذه الحركة في المكان التي تكمل دورة السرد من «آفس» وإليها، هي عودة إلى عمق سوريا، حيث لا شيء يفصل بين الأمكنة. يمكن أن تكون قصدية الروائي هي تكريس سوريا عبر الكتابة التي تقف بالقارئ عند مناطق الظل بعد أن عرف المدن المكرسة، دمشق وحلب وحماه وحمص، إنه نوع من جَبْرِ كَسْرِ الجغرافيا سرديا بعد أن شتتَتْها في وعيه، الطائفة ابتداءً، وفي وعي القارئ الإنساني أينما كان.

الحب حلما كمعيار للتحرر من الخوف:

تستمد الاستعادات قوتها من أثر الذاكرة، ولهذا كان لقاء «تلميذ بنش» و»سلمى» في بيروت في رواية «ملكة الفوعة تلميذ بنش» فاصلا في إمكانات الانبعاث من تحت رمادات الطغيان، فالحب علاقة تبدأ بشيء يدرك المحب سريانه، ولكن لا يفهمه، تلك الحالة هي ما تجعله دائما وفاعلا، وهي حركة «مريم» نفسها في «ناموا في منتصف الطريق» نحو تركيا للقاء «عمر»، وأثمر قربهما حالة من وعي الذات وتعريفها خارج منظومة الطائفة، حيث الخوف من أن نُحَبْ، كما ورد في الرواية على لسان سليم، الذي أحب ميساء العلوية وفرق بينهما الخوف: «في بلد تنهشها الطوائف يصبح الحب محرما لا على طريقة الدين، بل على طريقة الخوف». الحب هو الجامع بين الناس، لأنه طارد للخوف، وعندما تتحرر الذوات من الخوف فإن أفق الحب يصبح معيارا للعيش، ولهذا انتهت علاقة عمر بمريم بالزواج في زمن الحرية، أي زمن اللاطائفة. يعشش الحب ويصير كينونة فاعلة، لكنها دوما معرضة للهزات، لأن المتحابين إنما وقعا في بوتقة الانجذاب بفعلٍ ما لا يُعرف سره، وهنا تكمن قوة الحب أمام العواصف والمخاطر. كيف تتفجر الثورات والاستفاقات بعد تنويم الطغيان لإرادة الناس؟ رجوع البشر إلى أنفسهم

هو ما يحررهم من وهم العجز، بمعنى أن محبتهم لأنفسهم هي ما نبههم إلى رؤية الأشياء بعيون الحرية، ولهذا لما جمع الحب بين نهى ومجيد، اعترفت له: «أحاول ألا أحبك.. لأني أعرف أني سأغادرك»، هذا المستوى من الحب هو ما تتطلبه لحظات بعينها، فمنطقيا، أن الحبيب لا يستطيع البُعاد عن حبيبته، ولكن منطق الرواية يحاول أن يقدم بانوراما الحب بأشكاله المتعددة، التي تقود إلى التحرر من الخوف، بدليل أن نهى سافرت إلى ألمانيا، إلى أفقٍ للعيش يختلف تماما عن أفق دمشق، لكن الأشياء في سوريا كانت تتحرك وتتغير من أجل إنعاش الإحساس بالحلم، لولا الحلم ما أنقذف البسطاء في تحرير مبادرة الخروج من عنق زجاجة النظام الخانقة لأي أمل.

«حلم بافتتاح مكتبة في الحي، وحلم لأول مرة بنهى تعود من ألمانيا. لم يكن الحلم واضحا، لكنها كانت تمشي في شوارع إدلب». إن المعنى في الحلم بامرأة تتحرك داخل فضاء معين ومختوم بعلامة المعرفة (المكتبة)، يكشف عن المسار الطويل لاستعادة سوريا من بين مخالب اليأس، اليأس السياسي والسلطوي والطائفي. يعين الروائي وضع المرأة في الحلم: «كانت تمشي..»، ويحدد مكانها: «في شوارع إدلب» تمشي مفردة، وتتعدد عند الشوارع، تلك هي سوريا التي تحلم باستعادة تعددها في إطار وحدة المكان، حيث لا أفق سوى الإنسان، ولهذا اختلف مسار كل من نهى ومجيد، لكن على شريعة الحب، وهو معنى صوفي تتألم فيه الذات كي تبلغ مقام الحلول، والمكان هو بؤرة الذات المستهدفة.

تسوق الرواية بعض المقاطع السردية في لهجة محلية، وهو مستوى لغوي يحتاجه السرد كي يكمل دورته الإيهامية بالواقع في وجدان القارئ، لكن قبل ذاك في وجدان الكاتب، لأن كتابة رواية ليست فقط تثوير بؤرة الخيال واستمالة الذاكرة، حتى تتفجر لتزود الروائي بالصور، بل الرواية هي الذات الكاتبة في شعورها بالإنسان

والوطن والعالم، إنها اللحظة التي تكون فيها الذات ذاتها وليست شيئا آخر.

اللهجة ومحمولات الإنساني واليومي:

تسوق الرواية بعض المقاطع السردية في لهجة محلية، وهو مستوى لغوي يحتاجه السرد كي يكمل دورته الإيهامية بالواقع في وجدان القارئ، لكن قبل ذاك في وجدان الكاتب، لأن كتابة رواية ليست فقط تثوير بؤرة الخيال واستمالة الذاكرة، حتى تتفجر لتزود الروائي بالصور، بل الرواية هي الذات الكاتبة في شعورها بالإنسان والوطن والعالم، إنها اللحظة التي تكون فيها الذات ذاتها وليست شيئا آخر، لهذا يميل الروائي إلى دمغ الرواية ببصمته عبر اللسان، الذي يطلب به قهوة أو يعانق به إبنا، أو أما أو يلتقي به أحبة، أو ينبش به إحساسا عميقا لا يمكن أن يُترجم إلا بما تحكيه لغة اليومي بمحمولاتها الحزينة أو الفرحة، اليائسة أو الآملة. هي هذه، الرواية في تطلعاتها الإنسانية والذاتية قَبْلا، فمريم رغم روحها اللاطائفية إلا أنها حزنت لوفاة أخيها حسين الطائفي، وهو شعور فطري بالأخوة، رغم جدران الخيارات العازلة، وهو ما تترجمه الرواية في مستوى اللهجة: «بتعرفي، لما مات حسين… حسيت كأن حيط البيت وقع، يمكن لأني كنت شايفة فيه شي مني، ومن أحلامي، حتى لو كنا مختلفين». تشرح لأمها إحساسها لحظة سماعها خبر وفاة حسين، والجملة توظف معنى متداولا في اليومي، يحمل كل شفافية اللمة والتضامن الأسريين، «حيط» من محيط ويحيط، أي المعنى في الحماية، وهو ما توفره العائلة بدفئها وحقيقتها الراعية لأعضائها، عكس كلمة جدار، التي تقل استعمالاتها اليومية وتؤدي معنى الفصل والعزل.

أثناء ارتمائها في حضن أبيها الحزين على حسين في عزلته، يقول لها: رجعتي… بعد كل هالوقت؟». «رجعتي… بس حسين ما رح يرجع»، حالة الإحساس الجماعي بالفجيعة، الذي يكمن في مستوى نفسي عميق، أين ترسو العلاقة العائلية في تواشجاتها العاطفية الأشد تماسكا، وهو شعور

لا يمكن أن توصله الفصحى لأنها غير منعجنة في هموم الناس التواصلية اليومية، ما يوصل مثل هذه المشاعر هو ما يتشاركه الناس في يومياتهم فرحا وحزنا، خيبات وانتصارات، هو هذا المستوى من اللغة الأعمق إنسانية، لأنه بكل بساطة يترجم أحلام الناس وهم يعاركون الحياة في تقلباتها، وهو ما هيمن على الرواية كون الظرف الذي تقدمه بالمعايير الإنسانية أشد التصاقا بالوجدان، بالواقع وبالمستقبل، وهو ما يكشف توظيف ذات المفردة في المستوى اللغوي الفصيح، إذ تصف الرواية لحظة انفجار الثورة: «حين انفجرت البلاد.. كان الحائط الطيني الذي بنيناه لأعمارنا تشقق فجأة». فالحائط بوصفه طينيا، يمنح معنى العتاقة، أي الذاكرة، فلحظة الثورة كأنها لحظة خلخلت الذاكرة، هزت ثوابتها التي تشكلت مع نظام القمع الطائفي، لكن أيضا نحس على مستوى التلقي نوعا من الحنينية التي تربط الناس على مستوى وعيهم الجمعي، والتي تتحكم في توجهاتهم الكبرى، كلحظات الوطن الحاسمة، غاب مفهوم الجدار لأنه يؤدي مفهوم العزل، ولحظة الثورة هي حالة للقاء والتآلف.

البداية والنهاية بين مفتاح النص وفحوى الحكاية:

يمكن للعلاقة بين جملتي البداية والنهاية في الرواية، أن تفك مغاليق ما أبهم في النص، لأن البداية هي مفتاح النص والنهاية هي نقطة ارتكاز الفحوى من الحكاية، ورواية «ناموا في منتصف الطريق»، تمثل رؤية للأزمة السورية التي أُطلقت شرارة ثورتها السلمية التي لا تريد سوى التعبير عن كيانات تريد أن تعلن حضورها بكل بساطة النفَس التحرري، لكن القمع السلطوي حولها إلى لحظة دموية استغلتها التنظيمات المتطرفة من كل الطوائف معتلية من خلالها رقبة الجماهير المغلوبة على أمرها، الجماهير التي وصلت إلى منتصف الطريق حالمة، وعند ذاك أجهض الحلم واستطال طريق الانتظار، وأنهكت القوى. جاءت البداية تبشيرية حالمة: «لم يكن الصباح في آفس مختلفا عن سواه من صباحات

الصيف في ريف إدلب»، يمكن للعلامة أن تؤشر على بؤرة ذات دلالة، فالصباح للأمل والصيف للحرارة، بمعنى أن الأمل كان ينضج على صفيح ساخن ليس بالسهولة تحقيقه، جملة تؤدي مفهوم الانهماك في خوض الحياة، فالصباح بداية، بداية ممارسة الأمل في التحرر. تأتي جملة النهاية كقفلة تتوافق مع معطيات جملة البداية: «رفع رأسه. نظر إلى الأفق الممتد، نسمة باردة لفحت وجهه، كانت مدينة سراقب تستيقظ من خرابها، وكان الصباح يشق طريقه ببطء»، فالصباح في بداية الرواية بدا ساخنا، يختزن كل كمونات العمل من أجل الكسب، ثم بعد ذلك يأتي صباح نهاية الرواية ليعبر عن قطف ثمرة الجهد الذي بلغ منتصفه وظُن به الانكسار، لكنه كان بمثابة الانتباه عند نقطة معينة (منتصف)، فبعد الانهماك كان رفع الرأس، وهو بمثابة النظر بعيدا في الأفق المقبل والآمل، ومنه يمكن تأويل «منتصف الطريق» بآفس كعلامة، منها كانت البداية وإليها آلت النهاية.

كاتب جزائري

كلمات مفتاحية

الرواية السورية | شعبان عبود | عبدالحفيظ بن جلولي

اترك تعليقاً

لن يتم نشر عنوان بريدك الإلكتروني. الحقول الإلزامية مشار إليها بـ *

التعليق *

الاسم *

البريد الإلكتروني *

إرسال التعليق

abdelaziz أغسطس 10, 2025 الساعة 11:48 م

في حقيقة الامر الناقد والكاتب عبد الحفيظ بن جلولي مثقف كبير وله قراءاته التأويلية على مستوى الشعر والرواية والقصة وغير من المشاريع الادبية والفكرية ... فعلا ما يكتبه يدخلنا في دائرة الاندهاش واعادة طرح الأسئلة من جديد

رد

عبد الحفيظ بن جلولي أغسطس 11, 2025 الساعة 12:35 م

شكرا جزيلا عبد العزيز

رد